(11)

عمر يظهر من جديد

في شهر مايو 1982، جاءتني زيارة قادمة مباشرة من جحيم الماضي، زوجي السابق عمر موساوي كان في انتظاري عند خروجي من العمل، هذا غير معقول؟ هل سوف يضايقنا من جديد؟ قلت ذلك بداخلي خوفاً من وقوعنا من جديد في دوامة الماضي؛ لأني اعتقدت أني نسيتها. كيف عرف؟ مع العلم أن الكل يعرف أنه لا يجب تزويده بأي معلومات عني.

- أترين؟ إني أستطيع ملاحقتك في أي مكان، وأجدك متى شئت. قال ذلك مبتسماً.

أما أنا فلست بحاجة إلى الضحك، أنا أعرف عنفه، وهذا ما جعلني لا أثق به على الإطلاق، لم أره منذ سبع سنوات، كيف يمكن أن يتغير؟ كان يكلمني بكل هدوء، وبأبسط ما يمكن، وكأنه فارقني البارحة. شرح لي أنه وجد عملاً بالمنطقة، وأنه يريد رؤية الأطفال فقط. أجبته ببرودة يمكنك سؤالهم عن ذلك أولاً، الأولاد أيضاً ترعرعوا بعيداً عنه بعيداً عن عنفه وجنونه، لقد اختفى عمر من حياتهم ولا يمكنه انتظار أي شيء منهم. أنا متأكدة أنه لا يمكن أن ينال منهم ثانية، ولكن مهما كان فهو أبوهم، وأصبحوا كباراً اليوم. لهم الحق في اتخاذ القرار ومصارحته بما في داخلهم.

أعطاني موعداً في مقهى فندق الألزاس قريباً من محطة القطار، ورجعت بي الذاكرة إلى الأيام الحلوة التي قضيتها بمولوز. الأطفال ليسوا على استعداد لمقابلة والدهم، إنه سوف يسبب لهم المشكلات من جديد، قالت ذلك نادية.

عند وصولنا إلى المقهى كان الجميع متخوفاً، الأولاد يتفحصون أباهم والقلق يسيطر على عقولهم. أما هو فكان مبتسماً ويستعد لاحتضانهم، لكن ذلك غير كاف لكسر الجليد؛ جليد الماضي، وبدأ يتظاهر بمحبة الوالد لأولاده كأنه لم يحصل شيء من قبل، كان لا يتوقف عن مدحهم ويحاول إغراءهم بأي وسيلة. لقد تغيبت سبع سنوات، لقد مرت السنوات بسرعة، بدأت عليه علامات التعجب، لكن الآن أنا هنا وسوف ترون الهدايا كلها التي سأقدمها لكم، وكل ما تطلبونه سأوفره لكم، كنت أتابع ذلك وكأنه بطل فيلم إيف موطنان، «كله نار وكله لهيب»، عندما عاد ايف مونطان لبناته متوهجاً، هذا هو عمر على شكل إيف مونطان أكثر ميكافيلية، لقد نجح في إقناع أطفاله بتمثيله الرائع، فاستسلموا لألاعيبه، أما هو فتمادى في التباهي وتوزيع الوعود الكاذبة.

عندما رجعت إلى البيت بعد ساعتين رجعت وحدي؛ لأن الأطفال فضلوا البقاء معه.

عند الساعة الحادية عشرة ليلا لم أرهم بعد، كنت على وشك الموت من الخوف. عمر من النوع الذي يمكنه حملهم في السيارة غصباً عنهم والذهاب بهم إلى حيث يشاء، وأخيراً عادوا بعد منتصف الليل دون الإدلاء بأي كلمة، وأنا أستمع لأحاديثهم فهمت أن عمر أخذهم إلى الملهى. حتى زكريا البالغ

من العمر أربع عشرة سنة لم يسلم هذه المرة، سوف يلعب بعقول الأولاد. قلت ذلك داخلي، توجه كل واحد إلى غرفته وهو يضحك، لقد وقع الأطفال بسرعة تحت تأثيره وسحره وإغراءاته، فهو ينتقل بهم يومياً من ملهى إلى آخر؛ الملاهي الحديثة بصفة خاصة. نسوا أن أباهم تخلى عنهم في يوم من الأيام، ونسوا أنه ضربهم وأهانهم، ولكن لا شيء مهم بقدر الملاهي الليلية التي يأخذهم إليها وهم في سن المراهقة، عمر يعرف كيف يستغلهم لصالحه، فهو يشجعهم على التمرد على سلطتي، وتحدي الممنوعات، لقد علمهم التدخين، وشرب الكحول، وإهمال الواجبات المدرسية.

تحايل عليهم، وقال لهم إنهم أصبحوا كباراً، ولا بد من التحرر من سلطة أمهم. معنى كل ما تقدم أنه زرع في عقولهم حب التمتع بالحرية والتنعّم بها مثل غيرهم.

تأثير عمر السيئ أعطى ثماره فوراً، في بضع أسابيع دمر كل حياتهم. من قبل كانوا عند عودتهم من المدرسة يذهبون إلى الدروس الخصوصية ليساعدهم أحد الأساتذة أو إحدى صديقاتي لحل واجباتهم، أما اليوم، عند رجوعهم من المدرسة يتخلصون من أدواتهم المدرسية، ويلتحقون بوالدهم، مواعيد الأكل تغيرت أيضاً. من قبل كنا نجتمع حول طاولة الطعام لنتناول ما تيسر من الأكل والجلوس طويلاً للتحدث في موضوعات مختلفة، موضوعات مميزة تضحك الجميع لما فيها من أفكار متنوعة. أما اليوم فقد أصبحوا يتسابقون على إنهائه في أسرع وقت، والبيت أصبح مجرد فندق للأكل والنوم فقط. نظراتهم إلي اختفلت أيضاً. أصبحوا لا ينظرون لي كوني أماً، بل ينظرون لي على أني شخص مزعج ومتخلف متمسك بالعادات القديمة، ومتسلط لا يصلح إلا لغسيل الملابس فقط. سكنا في بيتنا الجديد في 19

نوفمبر 1982، كان ذلك اليوم بارداً جدًا، لقد وضعت كل أملي وكرست كل حياتي لبناء هذا البيت، واليوم قبل أن أدخله تأكدت أنه فقد قيمته حيث فقد المهم، فقد روحه، فالكل هنا لكن طعمه تغير، وأصبحت غريبة في بيتي، وانقلبت الأدوار، وأصبحوا لا ينادونني «أمي» بل عائشة، وأصبح من دمر حياتهم وأزعجهم بعنفه طوال حياتهم ينادونه أبي.

زرع عمر في عقولهم الحقد والعنف، حتى أصبحوا لا يجدون أي ارتباط بي، ولا يكنون لي أي احترام، تجاهلوني تماماً. قالت لي جميلة يوماً ما:

- لماذا نساعدك في البيت؟ لقد بنيته بالمنحة العائلية الخاصة بنا، وفي النهاية سجلته باسمك. دهشت لما سمعت، لقد كانت هذه أفكار والدهم، في تلك الأثناء تذكرت شيئاً مهماً، لقد بعثت لي المدرسة رسالة تفيدني أن جميلة وعبد الصمد يتغيبان عن المدرسة.

- لا أستطيع منعك من رؤيتهم، هذا ما قلته لعمر في يوم من الأيام.

- لكن يجب أن تنتبه لأنك على وشك تدمير حياتهم.

- ولماذا تظنين أني رجعت؟ قال ذلك متحدياً.

- طبعاً جئت لأدمر كل شيء قمت ببنائه. عندما رأيت الأولاد ينسلخون مني عرفت أنه سينجح في مهمته، كانت نادية هي أول الضحايا، بما أنها تحب المسرح أقنعها والدها بالتسجيل في أكاديمية التمثيل في فلوران بباريس. «اذهبي هناك لتحقيق حلمك». كان يقول ذلك باستمرار، حاولت أن أثنيها عن ذلك لكني عجزت لأنها صغيرة. فهي مفعمة بالحيوية وتريد التحليق بمفردها، إني أعرف أنها متعطشة للحرية، وليس لي الحق في منعها من ذلك.

كان يقول لها أيضاً: لا تكترثي، «سوف آتي لزيارتك باستمرار، وأقدم لك كل ما تحتاجينه من مصاريف»، أنا أعرف أنه يكذب ولا يدفع لها شيئاً، وأنا التي سأسدد كل النفقات التي تحتاجها في باريس.

للأسف بعد عدة أسابيع من ذهابها إلى باريس كانت أخبارها سيئة، لقد تخلى عنها أبوها مثل ما توقعت وأصبحت تعاني من المشكلات هناك، انحرفت نادية من الحلم إلى المأساة، وطبيعتها العفوية طحنتها قسوة الحياة.

كنت أظن أن مغامرة نادية وتخلي والدها عنها كان هذا كافياً ليتعلم الأطفال أنه لا يمكن الاعتماد عليه، ويجب الحذر منه، لكنهم شبه مسحورين وأنا أتألم خوفاً عليهم.

في يوم من الأيام صارحت جميلة بذلك.

- ما لهم إخوانك؟ إنهم في حالة غير طبيعية اليوم؟ ماذا حصل؟

- إنهم يخرجون كثيراً مع أبي، ويسهرون معه في الملاهي الليلية.

في ملاهٍ فيها راقصات عاريات، قالت ذلك وكأنه شيء طبيعي. لم أصدق ما سمعت، عمر يجر أولاده في ملاهي راقصات عاريات، لا أتعجب إذاً من تصرفات زكريا الجنونية.

زكريا له من العمر أربع عشرة سنة، قلت ذلك ثائرة، ليس له الحق في الدخول إلى الملهى الليلي. قالت لي إن عمر يعرف البواب ويجود عليه ببعض المال، وكل شيء يسير كما يريد. انهارت أعصابي مما سمعت، ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا يمكن مناقشة ذلك مع عمر، أنا متأكدة أنه سيتمادى في مؤامرته، وهي الإطاحة بي.

ذهبت إلى غرفة عبد الصمد.

قلت له ساخرة:

- إذاً أنتم ستنفجرون في الملاهي الليلية.

أجاب بشيء من الملل.

- لا تجعلي من هذا قصة.

- هذا من مبادئي لأنكم صغار. وأريد حمايتكم.

- اذهبي ولا تزعجيني بهذا، ثم خرج من الغرفة دون النظر إلي.

مغادرة نادية إلى باريس غيرت أشياء كثيرة في البيت، بما أنها أكبر إخوانها كانت تتحمل مسؤولياتها في أثناء غيابي وتقوم بدورها التربوي لإخوانها، من الآن فصاعداً كل واحد يحارب من أجل بقائه فقط.

قليلٌ من المرات التي يخاطبني فيها الأطفال، كانت اتصالاتهم من الملاهي لإفادتي أنهم في غاية من السعادة مع أبيهم في الملهى، في إحدى الليالي رن الهاتف. إنها جميلة.

- أنا مع أبي، وأخبرك أني سأذهب للعيش معه. تبدو وكأنها في منتهى السعادة، عبر السماعة سمعت ضوضاء الموسيقى التي تخيم على المرقص، هي دون شك في إحدى الملاهي الليلية. انهارت أعصابي أكثر من قبل، هكذا تعاملني ابنتي وتخبرني من إحدى المراقص الليلية لتزف لي خبراً كهذا، لم أجد أي إجابة إلا «أتمنى لك التوفيق».

قالت لي بعنف قبل وضع حدٍّ للمكالمة.

- لا تعتقدي أنك مركز العالم.

في الصباح حضر عمر، وأخذ كل محتويات غرفتها، هذه المرة لقد نجح في مناورته، لقد استطاع في أشهر قليلة كسب ود الأطفال وتدمير كل ما بنيته، طبعاً لقد كافحت كثيراً من أجل أولادي ربما كان من واجبي الوجود المستمر معهم في البيت، لكن ذلك لم يكن ممكناً لأنني كنت أعمل وأعمل من أجلنا كلنا.

صحيح أني عاملتهم بقسوة أحياناً، لكن هل هذا مبرر للتخلي عني؟ هل كان لي خيار آخر؟ وأنا أتحمل مسؤولية أربعة صغار، أليست السلطة والاحترام هي أساس التربية؟ كنت حريصة على مستقبلهم، وخائفة على ضياع مستقبلهم، وهذا ما حصل فعلاً اليوم. كيف لم يفهموا أن أي مكان يحل فيه أبوهم لا يزرع فيه إلا الخراب والمأساة.

بعد مرور شهر اتصل بي عمر أثناء الليل عبر الهاتف.

- إني مللت من ابنتك تعالي لأخذها.

- أنت الذي أردت ذلك ما عليك إلا تحملها.

قلت ذلك ووضعت السماعة مكانها.

تأكد أن جميلة ليست تلك البنت المغربية المطيعة، فهي ليست تلك الخادمة المطيعة التي تقوم بالطبخ والغسيل، فهي مراهقة تربت وكبرت في فرنسة، وتريد التمتع بالحياة مثلها مثل كل بنات جيلها.

بعد أيام اتصلت بي الشرطة وأحضرت جميلة إلى البيت، لقد ضربها أبوها ومزق الفستان الذي اشتراه لها ورماها في الشارع مثل رمي أي شيء في القمامة.

في سنة 1985 ظهرت بوادر الفرج، لقد حكم على عمر في قضية سرقة وتم منعه من البقاء أو التنقل في المحافظة كلها، اختفى من حياتنا مثل ما قدم، يا له من لص!

سوف يكون من الصعب إصلاح ما تكسر، كيف يمكن لمّ شمل العائلة؟ فهم الجميع أنهم ذهبوا إلى أبعد الحدود لذا أخذ كل واحد يتحمل مسؤولياته لترميم ما تكسر، وخصوصاً أثناء الأكل أهم ما كنا نتمتع به من قبل. رجعت الفكاهات ورجعت الابتسامة والنظرات المتبادلة كالمعتاد، واغتنمت هذه الفرصة لمشاركتهم متعتهم لأني أعرف أنها مؤقتة وسوف تزول

أصبح عبد الصمد وزكريا لا يتفارقان، كانا من قبل يتصرفان كالتوءم، واليوم أصبحا من جديد كالسياموا، عاشا مع أبيهما أشياء لا تتناسب مع أعمارهما، فهما مراهقان ومن حقهما مغازلة البنات والخروج مع رفاق الحي للتمتع بالحياة مثل كل الشبان.

في يوم من الأيام قال لي عبد الصمد إنه سيذهب مع أخيه لمشاهدة «الفيديو» عند أحد الأصدقاء، طبعاً لم يعجبني ذلك وخصوصاً بعد المغامرة التي عاشها مع عمر، لذلك أصبحت أعيش في خوف مستمر من تأثيرات أصحاب السوء الذين يخالطونهم، قلت له انتظر قليلاً سوف أشتري لك مسجلاً ويمكنك التمتع بالتفرج على أي شريط في البيت. كنت أتصور أنه سوف يشكرني على ذلك؛ لأن جهاز التسجيل ليس في متناول الجميع،

لكنه خرج متذمراً، عرفت في تلك اللحظة أنه تعود على مشاهدة الأفلام الإباحية. كانت أوقات عملي لا تسمح لي بمراقبتهم كما ينبغي وكما أريد، مع العلم أني كنت أقضي إجازة آخر الأسبوع في العمل في المطعم المغربي الذي كان يشرف عليه محمد.

أثناء غيابي يصبح البيت وكراً للأصدقاء، وعند عودتي إليه ألاحظ سحباً من الدخان تنبعث من غرف الأولاد. أنا مغربية وأعرف رائحة القنب، وكل الأمهات تعرفن أنه من الصعب مواجهة الأبناء المراهقين بأخطائهم لذا أخاطبهم مداعبة، هناك رائحة طيبة هنا «ما هي هذه الرائحة»؟ أقول ذلك على أمل أن يفهموا رسالتي، ولكن في غالب الأحيان يكتفون بغلق باب الغرفة أو يقولون دعينا وشأننا يا أمي.

كنت في تلك اللحظة مضطربة جداً، لماذا يسيئون إليّ؟ ولا يحترمونني؟ هل ذلك بسبب سن المراهقة أو هل هي بداية انحراف جديد؟ الهاتف لا ينقطع في البيت والأولاد يقضون معظم وقتهم في الحمام، وهذا يدل على ظهور البنات في حياتهم. عبد الصمد من المعجبين بالبنات، وكثير المغازلة مثل أبيه، فهو لا ينقطع عن مغازلة بنت حتى يبدأ بأخرى، وقد فهمت عبر محادثاته مع أخيه أنه يغازل كثيراً من البنات في آن واحد.

أما زكريا، فهو على العكس منذ أن حللنا بهذا البيت لم يغازل إلا بنتاً واحدة. لطيفة وجميلة كنت أفضل تسميتها دلفين، لقد أصبحت اليوم أماً، ولا ترغب اليوم في العودة إلى ماضي المراهقة، لقد غازلها زكريا سنوات عديدة وتعرضت مغامرتها إلى هزات عنيفة بالرغم من ذلك كان زكريا يعاملها معاملة لطيفة، ويكن لها كل الاحترام. الحمد لله أنه لم يرث شيئاً من تسلط والده الذي عانيت منه كثيراً في حياتي.

مع العلم أن أطفالي الأربعة يعدّون أنفسهم فرنسيين قبل كل شيء، في يوم من الأيام سمعوا وزيراً فرنسياً يتحدث في التلفاز عن الاندماج، فانتفض الأطفال أمام هذه العبارة قائلين كيف يمكن لنا أن نندمج؟ نحن نذهب إلى المدرسة، ونمارس الرياضة، نحن فرنسيون ماذا يريد أكثر من ذلك؟

في الحقيقة لقد قمت بتربيتهم منذ الصغر على الطريقة الفرنسية مثل أصدقاء من أصل فرنسي، زكريا يمارس كرة اليد، وعبد الصمد كرة القدم، أما نادية فتشارك في المسرح، وجميلة تمارس الرقص. لقد قمت أيضاً بتسجيلهم في الدروس الخصوصية بعد الدوام الرسمي للمدرسة، كما كنت أهتم بمراقبة معارفهم، وفي المساء كنت أشاركهم في سماع الأخبار ومناقشتها، وباختصار كنت أحاول أن أجعل منهم مواطنين فرنسيين بكل معنى الكلمة، حتى لا يشعروا بالغربة والرفض وعدم الانتماء للمجتمع الذي يعيشون فيه، وكان أملي من كل هذا أن يستطيعوا يوماً ما اختيار مستقبلهم بأنفسهم وبكل حرية دون تأثير المجتمع أو التقاليد أو الدين. في البيت يوجد المصحف والكتاب المقدس، ولا أريد التأثير عليهم. في عائلة أهلي كان الكل ملتزماً، وكان جدي إماماً، لكن لا أحد أجبرنا نحن الصغار على الالتزام بالدين أو مزاولته. بالرغم من كل ما عانيته من أهلي لم يجبرني أحد يوماً من الأيام على مزاولة الصلاة، لهذا لا أرى داعياً لإجبار أولادي على ذلك. لأن الدين شيء خاص بين العبد وربه، شيء داخلي لا دخل لأي أحد في ذلك، لذا تربى الأولاد في جو من العلمانية. مهما كان، منذ قدمت إلى فرنسة بلد الحرية وأنا لم أفكر في إجبار أولادي على التصرف بطريقة معينة، فهم أحرار حتى بلوغهم سن

الرشد عندئذ يتصرفون بمحض إرادتهم، فهم أحرار في اختيار الإسلام ديناً، ويصيرون فرنسيين مسلمين مثل الفرنسيين الكاثوليك، أو الفرنسيين اليهود، أو فرنسيين فقط. المهم أنهم فرنسيون.

عندما كانوا صغاراً عودتهم على الصيام أحياناً في رمضان، كنت أقول لهم سوف تصومون عصر اليوم وتصومون صباح الغد، ونصل هذا بذاك ليصبح يوماً، بالنسبة لهم كانت لعبة لا أكثر ولا أقل، لكن عندما كبروا توقفوا عن هذه اللعبة، وبما أني توقفت عن الصيام بعد عمليات أجريت لي في المعدة اختفى الدين من حياتنا. كان الأولاد يلومونني على عدم أكل لحم الخنزير أو شرائه، لكن مطعم المدرسة يؤمن لهم كل شيء، كانوا يقولون لي ذلك باستمرار.

لم يكن في نيتي عدم شرائه، بل لم أكن أفكر فيه أصلاً. هكذا تربيت هذا ما كنت أقوله لهم دوماً، وكانت إجابتهم هكذا دوماً.

- نحن هنا في فرنسة، وليس في المغرب ما لنا نحن والدين هناك، هذه تقاليد بالية خاصة بالأجداد.

كان المغرب حاضراً في قلوبهم بعيداً عن أذهانهم، لقد زاروه مرتين فقط في سنة 1977م - 1974م ولا يتذكرون شيئاً عنه، ولا يتحسرون عليه. قساوة الحياة وصعوبتها في المغرب، علمتهم أنه لا مكان لهم في المغرب، والأفضل العيش في فرنسة في الحي الذي نسكن فيه. كل أصدقائهم فرنسيون، ولا يفكرون أبداً أن أحداً قد يعاملهم معاملة تختلف عن معاملة الفرنسيين.

(12)

أول إهانة لزكريا

سنة 1988م بلغ زكريا العشرين من العمر، كانت علاقته بدلفين مستمرة منذ ست سنوات كنت أحسدهما على حبهما المتواصل، وكنت أفكر أنها ستصبح شريكة حياته في يوم من الأيام، لكني لاحظت تغيراً في تصرفاتهما، قل ظهورهما في العلن، فسألت زكريا عن سبب ذلك لكنه رفض الإجابة عن ذلك قائلاً لا شيء؛ لا شيء.

- سألت أخته جميلة عن هذا التغيير.

- أهناك مشكلة بين زكريا ودلفين؟ قالت لي: لا ليس هناك مشكلة هناك شيء آخر.

كانت لا تريد مصارحتي بأكثر من ذلك، لكني أمطرتها بوابل من الأسئلة بإلحاح حتى اعترفت لي بالحقيقة، تقطع قلبي مما سمعت.

كان زكريا في يوم من الأيام مع دلفين يتبادلان أطراف الحديث مع بعض الأصدقاء قرب بيت دلفين، وكان زكريا يمسك بخصر دلفين، وفجأة سمع زكريا صوتاً يخاطبه عن قرب. إنه والد دلفين، اتركْ ابنتي. ألا تظن أنك ستجلس يوماً ما في بيتي حول الطاولة نفسها معي!! سوف لا تدخل بيتي أبداً، لقد أهانه إهانة كبيرة أمام دلفين وأصدقائه، دون أن يستطيع زكريا الرد عليه بكلمة واحدة، وانصرف حزيناً. إني أعرف زكريا جيداً

إنه يتمتع بعزة نفس كبيرة، لذا لم يصارحني بما حصل. لقد أهين إهانة كبيرة. من ذلك اليوم أصبح أحد أصدقائه هو الذي يذهب لإحضار دلفين حتى لا يشعر والدها بشيء.

كان زكريا يحب العيش في فرنسة ويفتخر بذلك، لكن هذه الحادثة حطمت كل شيء. لقد تعرض كثيراً إلى العنصرية، وكنت دوماً أقلل من أهميتها، كنت أقول له هناك مجانين في كل مكان. حتى أنا تعرضت لذلك في العمل، لا تكترث بذلك، كنت أقول له ذلك حتى لا يتأثر سلبياً، ويواجه العنف بالعنف مثل الكبار.

في يوم من الأيام عندما كان عمره إحدى عشرة سنة، رجع من المدرسة بسن مكسور وقال لي: لقد تشاجرت مع أصدقاء نعتوني بالزنجي القذر، في تلك المرة لم أعر ذلك أي اهتمام؛ لأن الأولاد في هذا العمر لا يعرفون العنصرية، وكل ما حصل هو مجرد مشاجرة. لو كان بديناً أو أعور لنعتوه بذلك، لم أكن أتصور تأثير العنصرية على طفل حساس مثل زكريا. فيما بعد تعرض لحادث آخر ترك فيه أثراً بالغاً، كان في السنة الثالثة المتوسطة، وكانت السنة الدراسية على وشك الانتهاء. رجع من المدرسة غاضباً، رمى بالحقيبة المدرسية وذهب إلى غرفته. قلت له:

- ما بك.

- إنهم لا يريدونني تجاوز المراحل الدراسية ومتابعة دارستي بالمدرسة، هم يريدون توجيهي إلى المدرسية المهنية كل هذا لأني عربي.

زكريا تلميذ مجتهد وطيب له المعدل الكافي في كل المواد، لذا ليس من حقهم أن يمنعوه من متابعة الدراسة في المدرسة العامة، لكي أتأكد مما

حصل ومما قد يحصل، حددت موعداً لمقابلة الأساتذة، انتظرت قليلاً في الممر، فسمعتهم يتناقشون.

- جاء دور من الآن؟

- دور موسوي.

- وبعد.

- إنه يرفض التوجه إلى المدرسة المهنية، إنه يريد الإعداد للثانوية العامة، والمشاركة في امتحان الباكلوريا.

- قال أحدهم يتذمر:

- إنهم يريدون دوماً أكثر فأكثر هؤلاء، قام زكريا بالنظر إلي وكأنه يقول: أتسمعين إنهم لا يريدون ذلك مثل ما قلت لك.

لم نستطع عمل شيء لثنيهم عن قرارهم. عند عودتنا إلى البيت كان زكريا ثائراً، إنه مجروح ومهان، كنت ألوم نفسي؛ لأني لم أعوده على تقبل مثل هذه الصدمات.

لم نتكلم فيما بعد في هذا الموضوع، لكن زكريا قرر الانتقام والثأر مما حدث، وسوف ينال شهادة مهنية ثم يغير اتجاهه لتحضير الباكلوريا، وشهادة تقني سامٍ. لقد كان لهذا الحادث أثر كبير في عزيمته وإرادته. أثر إيجابي بالطبع، بعد سنوات حصل على الباكلوريا، وأقمنا حفلاً بهذه المناسبة. هو أول واحد في العائلة يحصل على الباكلوريا، كنت فخورة به وكادت الدموع تنهمر من عيني بغزارة. بعد كل المآسي التي عشناها لقد أصبح بإمكانه بناء مستقبله بيسر، كنت أنظر إليه وهو يتمتع بشرب

الشامبانية والسعادة تغمره بعيداً عن ظاهرة العنصرية التي عانى منها كثيراً، لهذا تقطعت أحشائي عندما أخبرتني جميلة بما حصل له سابقاً، وكنت أدعو من قلبي لينسى هذه الحادثة وتلك الإهانة التي تعرض لها، حتى لا تتكرر تلك الحادثة وتترك بداخله جرحاً عميقاً.

(13)

الانفلات

سنة 1990، انتهت الهدنة مع الأولاد. يا لها من هدنة قصيرة. بعد حصولهم على الباكلوريا تغير سلوكلهم من جديد.

بما أن البيت يفتقر إلى رجل يوقفهم عند حدهم، رجع الأولاد إلى العادة القديمة، وأصبحوا يتصرفون مثل ما كانوا يتصرفون عندما كانوا تحت تأثير والدهم. بدأ احترامهم يقل تجاهي شيئاً فشيئاً، وأصبحوا يتصرفون معي كأنه لا وجود لي إطلاقاً، ومن جديد أصبحوا لا يعدّونني أماً بل خادمةً غير مرغوب فيها، ماذا حدث؟ لا أفهم لماذا أصبحوا لا يكنون لي أي احترام إلى غاية الكره.

كانوا باستمرار يستقبلون أصدقاءهم في البيت، وأصبح البيت مثل الفندق، وأصبحت الغرف تختنق من كثرة الدخان، ولا يغادرونها إلا لطلب الأكل. من الواضح أن تصرفهم السيئ تجاهي ما هو إلا انتقام، لعدم وجود أب في البيت. إنهم لا يتصورون أنه لو كان أبوهم موجوداً لما استطاعوا إكمال دراستهم ولربما أصبحوا لصوصاً مثله، أو أطفال شوارع أو متسكعين تحت الجدران.

إني أتصور أنني أصبحت عدوة لهم، وكأنهم يريدون السيطرة على السلطة في البيت. نظراتهم لي وحقدهم تشبه طعنة السكين، ومن جديد أصبحوا لا يكلمونني إلا لتسليمي ملابسهم للغسيل أو لطلب الأكل.

إني أتعذب وأتألم، عندما أرى أولادي يعاملونني كالغريبة لعدم وجود رجل في البيت، وأصبح عبد الصمد يتطاول علي ويعطيني الأوامر، وأصبح يعدّ نفسه الرجل الذي تنفذ أوامره في البيت. وزكريا يرى ذلك طبيعياً ويتركه يفعل ما يشاء ولا يعارضه، وأصبحت أتجرع الذل والإهانة من تصرفاتهم، لكني لست سهلة المنال، ولا تلك التي تستسلم بسهولة. عندما كانوا صغاراً كانوا يلجؤون إلي لحمايتهم من بطش أبيهم، وأنا أعرف أنه لا يمكن انتظار أي شيء منهم، ولكن من واجبي رعايتهم حتى يصبحوا كباراً ويعتمدوا على أنفسهم برعاية الله سبحانه وتعالى وحتى هذا لا يستحقونه. أصبح الضغط يزداد يومياً في البيت، والمشاجرات لا تتوقف وبعنف متزايد، وأنا لا أريد إهانتهم ولا أريد تحملها، مع ذلك فهم لا يزالون يرفضون احترامي كوني أماً لا غير، أصبحت أعيش في واد وهم في واد، نعيش كالأجانب في البيت الواحد.

ساء الوضع أكثر فأكثر حتى أصبح لا يطاق، والمشكلات ازدادت من تفاقم الأوضاع المالية، فالولدان لهما من العمر اثنتان وعشرون وثلاثة وعشرون سنة، ولا يسهمان بشيء في نفقات البيت، ولا يهتمان حتى بشراء المقاضي، مع أن كلاً منهما يعمل مراقباً في المدرسة، ويتقاضى راتباً مقابل ذلك، ومن حين إلى آخر يقومان بأعمال إضافية في البريد، لكن كل ما يتقاضيانه ينفقانه على سهراتهما في الملاهي أو على لباسهما فقط.

لقد تجاوزوا الحدود، واقترح علي أصدقائي في العمل التصرف معهما بصرامة قبل فوات الأوان، بدأت بعبد الصمد قائلة: إما أن تسهما في نفقات البيت، وإما الرحيل. لم أكن أتصور أن الأمور ستتطور بسرعة، كان بإمكانهما مساعدتي من حين إلى آخر أو على الأقل احترامي، وساعتها

سأتغاضى عن كل شيء، وأصبحت لا أتحمل سخريتهما، ولا أتقبل تصرفاتهما، منحتهما مهلة خمسة عشر يوماً للتفكير، لكنهما لم يعيرا أي اهتمام لتهديدي، قال لي عبد الصمد:

ـ إنك تؤمنين «بالأب نويل»، فيما بعد سمعت محادثة بينهما حيث يفيد عبد الصمد أخاه أنه موافق على الإسهام في مصاريف البيت، لكن زكريا يعارض ذلك بشدة.

ـ لن يحصل هذا؛ لأنه إذا بدأنا نساعدها فلن تتوقف عن مطالبتنا بذلك. وفي الأسبوع المقبل ذهب عبد الصمد إلى باريس لقضاء إجازة نهاية الأسبوع مع صديقته، وعند عودته أخذ يعرض على أخيه كل الملابس التي اشتراها من باريس. اكتفى زكريا بسرد كيفية قضاء إجازة نهاية الأسبوع مع صديقته على شاطئ البحر.

شعرت من تصرفهما أن ذلك مجرد تحد لي لا غير، فمن جهة يرفضان الإسهام في مصاريف البيت، ومن جهة أخرى يقومان بانتقاء أجمل الملابس وأفخمها، ويقضيان الليالي في أفخم الفنادق، وشعرت بغليان في دمي فقرعت باب غرفة عبد الصمد، وجدتهما جالسين يدخنان.

ـ هل فكرتما فيما قلت؟

نهض عبد الصمد من مكانه واقترب مني ومسك بحلقي ودفعني للخلف، وقال لي يكفي الآن: إذا أردت المحافظة على صحتك وسلامتك دعينا وشأننا الآن. غطرسته وتهديداته أحدثت صدمة عنيفة داخلي، فتحت الباب على مصراعيه وصرخت في وجهه قائلة: إنكما في بيتي ولا تخيفاني. قال عبد الصمد بحقد: هل رأيت نفسك على حقيقتك؟ في هذه اللحظة شعرت

ببرودة وغضب شديد، هذه المرة لقد تجاوز حدوده، نظرت إليه بحزم وكأني أقول في نفسي له أبوكما لم يخفني، فكيف أخشاكما أنتما؟

كان ذلك اليوم يوم الخميس، ذهبت في اليوم نفسه إلى مكتب عملي وطلبت إجازة مدة أربعة أيام، وعند العودة ذهبت إلى مخفر الشرطة لأتأكد أني على حق في مطالبي. مثل العادة لقد غادروا البيت يوم الجمعة كالعادة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج البيت، وهما يجهلان أن عائشة عندما تغضب تتضاعف قوتها إلى عشر عائشات، وقمت بحزم أمتعتهما ووضعتها أمام باب البيت. أخرجت كل محتويات غرفة كل واحد منهما ووضعتها خارج البيت، بعدها دخلت إلى البيت وأغلقت الأبواب والنوافذ إغلاقاً محكماً. سوف ترون ما أستطيع فعله. قلت ذلك بيني وبين نفسي، وسوف يرون. سوف يفهمان أني كافحت كل حياتي من أجل احترامي، ولن أسمح لهما بإهانتي.

عند عودتهما نهاية الأسبوع لم أسمع سوى صراخهما وصياحهما، ولم أتصور أبداً يوماً من الأيام أن يشتمني أولادي بهذه الطريقة، وينعتوني بأبشع الألفاظ وأدناها. في هذه اللحظة انتابني الحزن والغضب، لم أتصور أني سوف أفقد أولادي، إني فقدتهم منذ زمن منذ بداية عدم احترامهم لي.

بعد عدة أسابيع، في صيف 1990 اتصل بي أخي عمر ليطلب مني استقبال حفيدتي فوزية، في البداية رفضت لأني كنت أستعد للسفر إلى تركية، ومن جهة أخرى قررت ألا أستقبل أي فرد من العائلة التي لا تفكر إلا في قضاء الحاجة فقط، فالسيناريو هو نفسه كالعادة، يأتون

إلى فرنسة ويجب علي إيواؤهم وخدمتهم واستخراج الوثائق اللازمة لهم وإطعامهم والاعتناء بهم حتى يجدوا عملاً، وفي نهاية المطاف لا أسمع منهم سوى كلمة شكر، لكن هذه المرة ليست كالعادة لأن فوزية قدمت بتأشيرة للدراسة، وليس للإقامة والعمل لذا استسلمت للأمر الواقع، وقبلت استقبالها واستضافتها.

أنا أتفهم فوزية؛ لأنها تريد الهروب من مجتمع تضطهد فيه المرأة، ولا يسمح لها بالتفتح. قدمت ونزلت عندي، وبدأت تروي قصتها بالتفصيل، فصارحتني بكل شيء حتى الأشياء الحميمة بالتفصيل. لقد تغيرت التقاليد بالمغرب بعد مغادرتي منذ خمس وعشرين سنة، لكن التقاليد لا تزال تهيمن على البلد. وجدت نفسي في كل ما حصل لها، لذا أشفقت عليها وتعاطفت معها. صارحتني أنها تريد رؤية أبنائي والتعرف عليهم.

ـ حتى يتحقق لك هذا اطلبي ذلك من جميلة؛ لأني لا أعرف أين هم وماذا يفعلون.

ـ قالت لي ألا يمكنك طلبهم؟

شرحت لها أن الوضع متأزم بيني وبين أولادي، وما عليهما إلا تجاوز الخطوة الأولى والاعتذار لا العكس، أنا التي أنجبتهما، ولست على استعداد للركوع أمامهما. أحياناً أتألم كثيراً عند رؤيتهما في الشارع، وأحاول تجنب رؤيتهما. سنة كاملة لم أسمع عنهما أي شيء ما عدا ما تخبرني به نادية أو جميلة، لقد عرفت منهما أن زكريا يسكن في الحي الجامعي بمدينة مونبولييه حيث يدرس الإلكترونيات.

بدأت فوزية تراهما باستمرار، لقد كان تصرفهما يحيرني، حتى أصبحت أشك أنها تخفي علي شيئاً ما، فهي تطلب مني استقبال عبد الصمد لأنه سيصبح دون أي مأوى. في نهاية السنة الدراسية 1991 أثناء فصل الصيف، أصبح الوضع لا يطاق في البيت فالصدام دائم بينه وبيني، وكأنه ليس ابني وأنا لست أمه.

عند بداية السنة الدراسية ذهب عبد الصمد وفوزية إلى مزارع الكروم للإسهام في قطف محصول العنب والحصول في المقابل على شيء من المال. كانت علاقتهما طبيعية، لكن عند عودتهما تغيرت العلاقة الطبيعية إلى علاقة حميمة، لقد حاولت فوزية من قبل التقرب من زكريا لكنها عجزت، فقامت بإغراء عبد الصمد أثناء هذه الحملة لتجريد الكروم من ثمارها الخمرية اللون. بالرغم من خلافي معهما بخصوص هذه العلاقة إلا أني أشفق على حالهما وأرثي لحالهما هل أوقعته في الفخ مثل العديد من الفرنسيين الذين يتوقعون أنهم تعرفوا على الحب الحقيقي، لكن سرعان ما يكتشفون أن ما توقعوه إنما هو مجرد جواز سفر للعبور فقط. أصبحت هذه العلاقة شيئاً فشيئاً جداراً يفصل بيني وبين ولدي، وهذا ما حصل بالفعل. ساءت الأجواء بالبيت أكثر فأكثر، تغيرت فوزية عن البنت الطيبة الخدومة التي عرفتها من قبل، أما عبد الصمد لقد أصبح من جديد يعاملني مثل الخادمة. قال لي في يوم من الأيام: لقد قمت بتربيتنا مثل البنات لغسل الصحون فقط، من الآن فصاعداً انتهى هذا العهد. بعد أسبوع فقط من عودتهما من رحلة العمل والغرام، أصبحا يصدان الأبواب في وجهي دون أي سبب، وبلا أي مبررات. وبدلاً من مساعدتي على لم الشمل وإعادة الأمور إلى طبيعتها بيني وبين أولادي، قامت فوزية بتغذية النار بيني وبين ولدي عبد الصمد وسكب الزيت على النار لتزيد اشتعالاً.

بعد مدة علمت من جميلة أن زكريا يستعد للرحيل إلى بريطانية، لقد سجل في معهد التجارة العالمية لتحسين لغته الإنجليزية، وسوف يذهب عند بداية السنة الدراسية 1992 دون توديعي ولا التفكير في أصلاً. وهكذا أصبحت علاقتي منقطعة تماماً مع ولدي. يا ترى هل سوف أراه يوماً من الأيام؟ ربما سيفهمان يوماً ما الضرر الذي تسببا فيه وإيذاءهما لي، لقد سكبت كثيراً من الدموع من أجلهما، وما زال قلبي يعاني من الآلام والحسرة، لقد نفذ صبري وتفهمي نتيجة إيذائهما لي، لقد عاهدت نفسي ألاّ أترك لهما الفرصة لتدميري، وإذا رغبا في رؤيتي ما عليهما إلا الاعتذار أولاً وقبل كل شيء.

زكريا يكلم أخته جميلة بالهاتف مرة في الأسبوع فهي التي تزودني بأخباره، ولقد حط الرحال في السكن الجامعي مع بعض الأصدقاء، ويعيش على نفقة الجمعيات الخيرية، وفقاً لما فهمته من جميلة. فهو لا يرغب في العودة إلى فرنسة، لقد قال لها الحياة هنا أفضل لقلة العنصرية في بريطانية.

في سنة 1995 دخلت جميلة المستشفى لوضع مولودها الأول، وبهذه المناسبة رأيت زكريا من جديد. بينما كنت جالسة في قاعة الانتظار رأيته يدخل القاعة بخطى ثابتة في صحة جيدة كما يبدو، وكان يرتدي ملابس رياضية أنيقة وفاخرة، وألقى نظرة إلى الجلوس ثم جلس دون محاولة إلقاء نظرة في اتجاهي.

قلبي يتقطع من هذا التصرف، بالرغم من ذلك كنت أشفق عليه وأرثيه. إن ضميري مرتاح، لقد كافحت من أجل تربية أولادي بما فيه الكفاية، ولم أحاول إيذاءهم أبداً، حتى عند إساءتهم لي إني لا ألوم نفسي على أي شيء، أنا متأكدة من ذلك. إنه يتعذب بداخله من جراء تصرفه هذا.

رجع إلى بريطانية دون أن أراه ودون مخاطبتي أصلاً، وحاولت إقناع نفسي أن ذلك لا يهمني لكني لم أفقد الأمل أبداً. أمل رؤية أولادي يوماً ما، وستعود الطيبة والاحترام. حتى لا يخيب أملي في فقدان هذا الأمل، طلبت من جميلة عدم تزويدي بأي معلومة بخصوص زكريا مستقبلاً، وفي داخلي كنت أتمنى أن لا تتقيد بأوامري، وتستمر في تزويدي بأي خبر جديد يخص زكريا.

في آخر سنة 1996 كانت جميلة على اتصال دائم بزكريا، لقد لاحظت تغيراً في شخصيته.

- قالت لي جميلة: إنه لا يكف عن إزعاجي؛ لأنه لا ينفك عن السؤال عنك.

- قلت لها منفعلة: صحيح ما تقولين.

- نعم، إنه لا ينفك عن الحديث عنك ويناديك أمي من جديد، واختفت من قاموسه كلمة عائشة أو العجوز كما كان يناديك، إنه لا ينقطع عن تلقيني دروساً في الأخلاق، ويطلب مني حسن تربية الأطفال، وخصوصاً المحافظة على الصلوات. لقد قال لي أيضاً إنه سيأتي قريبا لزيارتك.

حتى لا يخيب أملي من جديد، لم أعبر عن أي انفعال تجاه ما قالته لي جميلة، لكن بداخلي لا تزال شعلة الأمل متقدة وتستمر في تذكرتي.

(14)

تحوّل زكريا

في شهر مايو 1997م عند الساعة التاسعة صباحاً، رن جرس المدخل الرئيس للبيت، ونظرت من شرفة المنزل فرأيت زكريا واقفاً عند الباب الخارجي، نظرت إليه بهدوء كان يرتدي بدلة جميلة، ويسدل لحية خفيفة يبدو كأنه رجل أعمال. كان ينتظر عند المدخل دون محاولة عبوره.

بادرني أولاً.

- صباح الخير. قال ذلك بكل لطف، أريد التكلم معك. كم انتظرت هذه اللحظة؟ لا أعرف كيف أتصرف في هذه اللحظة بالذات، وعند رؤية زكريا رجعت إلى الماضي؛ ماضي العذاب والإهانة.

- قلت له: لا، لا أستطيع اليوم إني مرهقة.

بقي لحظة في مكانه ينظر إلي ثم اختفى، قلت لنفسي ربما قد تغير فعلاً، لكني لا أصدق. لا أريد المخاطرة، وتخيب أملي من جديد.

وفي الصباح رجع كاليوم الأول عند الساعة التاسعة صباحاً.

- صباح الخير يا أمي، قال ذلك وسكت.

صحيح، إنه ينادني من جديد أمي، وأخذ قلبي يدق وينتفض بسرعة مئة كيلومتر في الساعة دون أي انفعال أمامه.

بقينا ننظر إلى بعضنا بعضاً مدة طويلة، وجهاً لوجه ثم قال لي أخيراً:

- هل يمكنك العفو عني يا أمي، أنا أعرف أني أسأت إليك كثيراً، وأتأسف كثيراً.

- أعتقد أني أرى عبر عينيه أنه يقول ذلك بصدق، ولا أظن أنه مخطئ.

وقف واقترب مني وقبل رأسي ثم ركع أرضاً عند قدمَيّ، وبدأ يبكي. لو أستطيع الرجوع إلى بطنك لفعلت لأولد من جديد، وأبدأ حياة جديدة، يجب العفو عني. إذا لم أنل عفوك فلن أنال عفو الله أبداً.

لأول مرة أسمعه يتكلم عن الله، وعرفت من ذلك أنها بداية الهداية. كما عرفت أنه استوعب معنى الاحترام.

- أنا لا أمانع أن يرجع إلى الله عز وجل، إذا كان ذلك يساعده أن يصبح أفضل سلوكاً وأخلاقاً.

لم أتصور كل هذا الشعور والانهيار أمامي بهذه الطريقة، لكن كل هذا لا يمحو كل الإساءة التي صدرت منه.

- أنا لا أمانع من العفو عنك، لكنك تعرف أن العفو الحقيقي يجب أن تستحقه. يكفي أني استقبلتك في بيتي، وتكلمت معك فهذا كثير.

- قال بلطف: أعرف ذلك.

كنت أنظر إليه، فاكتشفت أني أرى إنساناً آخر، لقد أصبح رجلاً بكل المعنى، وليس لي الحق في عدم العفو عنه بشرط أن يستمر في إثبات

صدقه، ربما نستطيع بعد ذلك بناء صيغة جديدة لاحترام متبادل بين الأم وابنها، وبين الابن وأمه.

مرّ اليوم هكذا في صمت متبادل، وربما كان ذلك هو الأفضل، كلانا لا يريد أن يخادع الآخر، ونستمر في نقاش غير مفيد، إنه يعرف الآن أنه يجب عليه استرجاع الألفة بيننا.

عند الساعة السابعة والنصف مساء غادر البيت، واتجه إلى محطة الحافلة، فاض قلبي أملاً. وفي الصباح رجع من جديد إلى البيت في الموعد نفسه الساعة نفسها وهي التاسعة، لم يدخل إلا بعد أن أذنت له بذلك، هكذا كنا نتقابل يومياً مدة أسبوعين، أثناء بضعة أيام لاحظت أن احترامه لي وحسن سلوكه أفضل من الخمس عشرة سنة الأخيرة، كنا نتكلم بخصوص العائلة ومشكلات هذا وذاك فكان يقول لي باستمرار: يجب العفو عن عبد الصمد.

- عليه أن يطلب العفو أولاً، فهو الذي أساء لي وعذبني.

- أعرف أنه سخيف مثل ما كنت أولاً، لكنه يظل ابنك. مع العلم أنك كنت تفضلينه علينا.

- ماذا تقول؟

- نعم، كنت دوماً مهتمة به، وبأغراضه عندما كان صغيراً، وكنت تحبينه أكثر مني.

- إنك مخطئ تماماً، إنك كنت هادئاً ومرتباً. لذا لم أكن أهتم بك، ولا أهتم بترتيب أغراضك؛ لأنها كانت لا تحتاج إلى ترتيب. أما

عبد الصمد فهو مختلف؛ لأني لو لم أكن أرتب غرفته ولأصبحت مزبلة، لأصبحت كالسوق. هذا ما في الأمر. كيف تظن أني أحبه أكثر منك، أنتما ولداي أحبكما أنتما الاثنين دون تفرقة، وبما أنكما تختلفان، فكنت أبدي لكل واحد حباً ما. هذه المحادثة ضاعفت من حيرتي، وربما هذا ما جعله يتصرف معي بوقاحة أكثر، وربما شعر فعلاً أني لا أحبه في كل السنوات الماضية، يا له من تأثير كبير في نفسيته. في البداية كنت أستغرب أنه من حين إلى آخر ينقطع عن المحادثة، ويدخل الغرفة للصلاة لكن سرعان ما عرفت أنه فعلاً تغير، ولقد وجد في الدين راحة نفسية كان بأمس الحاجة إليها.

لم يتحدث في المسائل الدينية أبداً، ولم يطلب مني المحافظة على الصلاة، ولا أي شيء آخر له صلة بالدين، لكنه كان يسألني إن كان هناك محلات حلال في المنطقة للتسوق منها. في يوم الجمعة اقترب مني بكل لطف وطلب مني تفصيل ملابس مغربية ليلبسها أثناء صلاة الجمعة وقمت بإعدادها في اليوم نفسه.

ذهب بها إلى المسجد ورجع بعد الصلاة غاضباً.

- أنا لا أحب هذا المسجد.

- ما له هذا المسجد؟

- لا شيء؛ لا شيء لا يعجبني.

عرفت فيما بعد أن زكريا تشاجر مع الإمام، لأنه يدعو إلى إسلام فيه كثير من التسامح عكس المسجد الذي تعود على الصلاة فيه، ولم أكن أتصور كم كان تأثير الدين في حياته، لكن لاحظت أنه يتحلى بلطف زائد

ونضج أكثر وتعقل أكثر، مهما كان الأمر فهذا شيء طبيعي لأنه رجل مثقف، وله من العمر تسع وعشرون سنة.

- لماذا تتعب نفسك في الذهاب إلى المسجد؟ يمكنك الصلاة هنا، وتتجنب المشكلات؟

- لا، لا المساجد بنيت للصلاة فيها، وطلب الغفران من الله.

تعجبت من تصرفه هذا وجديته.

- أين تعلمت التحدث بهذا الأدب الزائد.

كانت إجابته مجرد ابتسامة.

بعد ساعتين غادر البيت، وقبل المغادرة سلمني ورقة كتب عليها رقم هاتفه.

عند رجوعه إلى لندن أخذ يكلمني بالهاتف مرتين في الأسبوع، وفي كل مرة يطلب مني أن أعفو عنه؛ لأن الله لا يعفو عنه إلا إذا عفوت أنا عنه، وأحياناً كان يبكي وهو يكلمني، لأن الأحاسيس تتفاعل أكثر عندما يكون الإنسان بعيداً عن من يحبهم، وبعد سبعة أشهر انقطعت أخباره لا مكالمات ولا رسائل، وانتابني القلق ولكني لم أفكر في الاتصال بالرقم الذي تركه لي، ولا أرغب في ذلك. بقيت هكذا دون أخبار مدة طويلة.

من جديد رن الهاتف.

- أهلاً يا أمي أنا زكريا.

- أين كنت؟

- أنا آسف لم أستطع الاتصال بك، لأني كنت منشغلاً جداً.

- هل أنت بخير، ليس هناك أي شيء، أتمنى ذلك.

- لا، لا كل شيء على ما يرام. تلك هي إجابته.

حاولت التحدث معه بخصوص حياته وعمله وأصدقائه، لكنه في كل مرة كان يتهرب.

- تعرفين يا أمي أنني أتمنى أن أقوم يوماً ما بعمل يرضيك ويجعلك فخورة بي.

- إذا كنت فعلاً تريد رضاي، أبدأ في البحث عن عمل؛ لأنك في يوم من الأيام ستحتاج إلى زوجة وأولاد.

- سوف يحصل ذلك إن شاء الله. تلك هي إجابته.

- ارجع إلى فرنسة لتسكن قريباً مني.

- لا يهمك يا أمي، سوف يأتي اليوم الذي نجتمع فيه جميعاً، ويطلب منك عبد الصمد العفو عنه.

كانت لكلماته وقعٌ طيبٌ على قلبي، وأخيراً تحركت العجلة، وكنت أتساءل باستمرار: ماذا فعلت حتى أصبحت أعامل من طرف أولادي بهذه القسوة؟

- بعد أن اعترف زكريا أنه يجب عليهما طلب العفو، أزيح من فوق كتفي عبء ثقيل.

من جديد قلت مكالمات زكريا، وأحياناً يكلمني ثلاث مرات في الأسبوع ثم تنقطع أخباره مدة أسابيع.

في ربيع 1995، بعد غياب طويل وصمت رهيب، لفت انتباهي رسالة غريبة في صندوق البريد، هي عبارة عن ظرف صغير من ورق رديء جداً، يبدو عليه تعب السفر. لم أتعرف على من كتب العنوان، والعلامة الوحيدة المميزة، أن الرسالة تحمل ختم باكستان. من يمكنه أن يكتب لي من باكستان؟ إنه زكريا وأخيراً كتب لي لكن ليس هو زكريا الذي أعرفه، لقد أمضى الرسالة بالعربية، وهذا ليس من عادته. مع العلم أني لا أعرف أنه يجيد كتابة العربية، كانت الرسالة تحتوي على ست صفحات، كتابتها رديئة كأنه لم يجد الوقت الكافي للاهتمام بخطه، حتى الجمل متقطعة وغير مكملة لبعضها بعضاً، كان في كل سطر - تقريباً - يتوسل إليّ ويطلب مني العفو، كما كان لا ينفك عن ذكر الله في كل سطرين تقريباً. صحيح أن كل مسلم مطالب برضا الوالدين ورضا الأم بالذات، وهذا ما يطالبني به، ولكن إلحاحه تجاوز الحدود المعقولة وغير المعقولة، وأخيراً رجع ولدي إلى الحظيرة، ولدي الذي ضاع مني منذ زمن طويل، لكني لا أعرفه بهذا الشكل. ماذا حصل؟ حاولت طرد كل الأفكار التي تراودني، وعددت مضمون الرسالة نتيجة التعب وكثرة الهموم.

أثناء عطلة الصيف ذهبت إلى المغرب لزيارة أمي. أخبرتني أن زكريا جاء لزيارتها بعد عودتي من فرنسة في آخر زيارة لها قبل سنة ونصف تقريباً. لماذا لم يخبرني عن هذه الزيارة؟ قالت لي: إن زيارته كانت قصيرة جداً، لأن العائلة كانت ترغب في تزويجه أخت فوزية، لكنه رفض وهرب تحت ستار الليل دون حس ولا خبر كما يقولون. لماذا قدم إلى المغرب؟ وهو الذي كان دوماً يرفض العودة إلى المغرب، بعد زيارته له، وكان عمره تسع سنوات. وعدت نفسي أن أسأله عن هذه الزيارة في أثناء أول مكالمة قادمة.

عند عودتي إلى ناربون في شهر نوفمبر وجدت رسالة مسجلة بالجهاز المجاوب هذا نصها: أمي إني لم أجدك، كم أنا حزين؛ أقبلك. هذا كل ما قاله دون أن يذكر مكان إقامته وما هو عمله، قال لي أيضاً إنه يحبني ويطلب مني العفو عنه، إنه يطلب ذلك باستمرار، لقد أصبح ذلك مثل الوسواس يلازمه طوال الوقت.

أعدت تكرار سماع الرسالة كم من مرة، عشرات المرات؛ لأني كنت قلقة عليه، بالتأكيد أنه ليس على ما يرام، وبالتأكيد أنه يعاني من هموم لا يعلمها إلا الله.

تلك هي آخر رسالة من زكريا.

بعد شهر، بينما كنت أبحث عن مكان لإيقاف سيارتي اقترب مني رجلان.

- صباح الخير، هل أنت أم زكريا موسوي.

- نعم أنا أمه، هل أنتما من شرطة ناربون.

- لا، لا نحن من إدارة مراقبة الحدود.

خجلت أن أصارحهما، أني لا أعرف شيئاً عن إدارة مراقبة الحدود، وأخبرني أحدهما أن أحد أصدقاء زكريا كان ينتمي إلى تنظيم القاعدة، وأنه لقي حتفه في الشيشان. كان يريد من وراء ذلك أن أفيده بمعلومات أخرى.

- قلت: وماذا يفعل زكريا بالشيشان؟ ليس له أي علاقة بما يجري هناك. إنكما مخطئان بلا شك.

- هذا ما أردنا معرفته، قال أحدهما ذلك بتعجب.

مع العلم لقد رأيت هذا الصديق في يوم ما، إنه أحد أصدقاء المدرسة ولد أسمر، وأظن أنه صاحب زكريا في أثناء رحلته إلى بريطانية، وكاد يغمى علي، لم أتصور أبداً أن زكريا قادر على الذهاب إلى الشيشان.

- لكن ما علاقة كل هذا بولدي؟

- وجدنا اسمه في مذكرة أحد الإرهابيين الذين قاموا بقتل إمام، لهذا نريد مقابلته لتوجيه بعض الأسئلة له.

- قال لي أحدهما: لا داعي للقلق يا مدام ثم انصرفا.

هذه قصة غريبة تجعلك تنام واقفاً، ربما كان لزكريا بعض أصدقاء السوء دون علمه. لست قلقة لأنني أعلم أنهما مخطئان، لأن زكريا لا يهتم بهذه الأشياء وخصوصاً كل ما يتعلق بالتطرف والإرهاب. قبل سنة 1997 لم أشاهده أبداً يصلي، وبما أنه فرنسي فهذه الأشياء لا تهمه، وليس له أي هدف من وراء كل هذا. قبل مغادرتهما أعطاني أحد الرجلين كرتاً يحمل رقم هاتفه وهاتف الإدارة. وضعته في زاوية من زوايا المجلس لعل وعسى. مرت الأيام ونسيت هذه الزيارة، لكن لا خبر عن زكريا حتى ربيع سنة 2001. في شهر مايو من العام نفسه جاءتني مكالمة من أحد رجال مراقبة الحدود طلب مني تزويده بأخبار عن زكريا ثم قال: أظن أنه ذهب إلى الولايات المتحدة.

- لماذا ذهب؟ وماذا يفعل هناك؟

- نحن لا نعرف شيئاً غير ذلك، لهذا طلبناك.

- قلت لنفسي:

- لماذا يقوم هؤلاء بمراقبة ولدي وتتبع أخباره؟

- قام من جديد بمطالبتي بعدم القلق، لأن هذا العمل روتيني.

آه لو زكريا يكلمني لكي أقول لهذا الرجل إنه مخطئ في حقه، لماذا لا يكلمني ويزودني بأخباره؟ يا ترى ماذا يفعل في هذه اللحظة؟

(15)

الرجل رقم 20

في 13 سبتمبر من سنة 2001 بدأ عرض العمليات الإرهابية على كل القنوات في التلفاز. في مخيلتي أيضاً لا يزال الغبار يتناثر من البرجين التوءمين، كما لا تزال صورة ولدي تتنقل عبر كل القنوات، فهو الرجل الذي يحمل رقم عشرين من الإرهابيين. كان من المفروض أن يقود الطائرة المخصصة لتدمير البيت الأبيض، والعالم كله يعدّه مذنباً.

ذهبت إلى المجلس حيث توجد صورة زكريا، تلك الصورة التي كان يبتسم فيها وكأنه عفريت، وكان بجانبها قطعة من الجبس وضعت له عندما كسرت يده، وأحتفظ بها لتذكر حادث تعرض له وكان عمره 12 سنة، وفي هذه الأثناء سالت الدموع من عيني بغزارة. ماذا حصل؟ وجدت نفسي في كابوس لا مثيل له، قاتلت كل حياتي لإخراج أولادي من الظلمات والتعصب، وكافحت طوال حياتي من أجل تأمين حياة لأولادي يتمتعون فيها بالحرية واحترام غيرهم، لكن اليوم زال كل هذا، وحلت مكانه الصدمة الكبرى أو بالأحرى الصفعة الكبرى، لم أتصور أن هذه الحرية التي كنت أحلم بها سوف تنتهي بإهدار دم الآخرين. أريد الفرار والابتعاد عن كل هذا، أريد تفادي كل هذا، ولو دقيقة حتى لا أرى بأم عيني أن ولدي متهم بالمشاركة في هذه العملية الدموية الكبرى؛ أعظم عملية دموية في تاريخ البشرية، لكن الصحافة في الخارج في انتظاري باستمرار أمام بيتي لتذكيري بهذه العملية الشنيعة، والمكالمات من أنحاء العالم كله تحاصرني،

من الولايات المتحدة، من اليابان، من السويد، من السعودية أيضاً. الكل يرغب في إجراء حوار معي؛ حوار مع أم الإرهابي. منذ يومين كنت أعيش وحيدة في بيتي، وها أنا اليوم في قلب المعمعة في مواجهة ميديا العالم كله.

عند وصول أول دفعة من الصحافيين، شاهدت في نظراتهم الاستغراب، كانوا يظنون أنهم سيواجهون أماً متحجبة تسكن في إحدى الأبراج المكتظة بالمغتربين، ولا تجيد التكلم بالفرنسية. وجدوا أماً متقاعدة تعيش وحيدة في إحدى ضواحي ناربون الهادئة، وكلهم يريدون معرفة شيء واحد، هل كنت أعرف أن ولدي أصبح متطرفاً؟ أو هل كان بإمكاني توقع ما سوف يحصل؟

رجعت بي الذاكرة إلى الوراء، إلى آخر زيارة لزكريا سنة 1997، هل سيطرت علي العاطفة وتشوقي لرؤيته فجعلتني لا ألاحظ انحراف ولدي؟ لا أغفر لنفسي هذه الهفوة. لو كنت أعرف أنه في يوم من الأيام سوف يخالط الأشرار لكلمته في ذلك، وقدمت له النصيحة، وقدمت له المساعدة لينظر إلى العالم بشيء من التسامح والتعقل. كان ذلك سيجنبني العذاب الذي أتخبط فيه الآن، لا يبدو لي أنه كان طبيعياً عكس ما كان يكتب عنه في وسائل الإعلام، إنه كان غير ملتحٍ، ولا يرتدي الزي الإسلامي، لقد شاهدته أحياناً وهو يصلي، وهذه أول مرة أشاهده وهو يصلي، ما المشكلة في ذلك؟ كنت أظن أن الله هداه، وأصبح مسلماً طيباً، وأصبح يتمتع بالعقل والعقلانية، كان بإمكاني تصور أي شيء إلا أن يصبح متطرفاً وإرهابياً، كنت أظن أن من يقوم بالعمليات الإرهابية في الجزائر وفرنسة أمثال خالد قلال، ما هم إلا جماعة من المجرمين لا علاقة لهم بالإسلام والمسلمين، وكنت أعرف أيضاً أن ابني يتمتع بتربية وأخلاق عالية، لهذا لم أكترث أبداً ولم أفكر فيما سيحصل.

لكن الأيام تمر وتحمل تحت طياتها المفاجأة تلو الأخرى، وأخذت أراجع كل ما تقوله وسائل الإعلام، لقد تم القبض على زكريا في 16 أغسطس في أحد فنادق منيسوتا، لقد نفذت تأشيرة دخوله إلى أمريكة وتم العثور على جوازين معه؛ جواز سفر فرنسي، وآخر جزائري. الجواز الجزائري هو الذي شغل بالي لأنه جواز مزور دون شك، فهذا هو سبب توجيه التهمة له وإيقافه، ووجد رجال الأمن بغرفته بعض الخناجر ومنظاراً وكتيباً لتعلم قيادة الطائرة، وقفاز ملاكمة وجهاز لاسلكي محمول خاصاً بالطائرة.

زكريا سجل في مدرسة ليتعلم قيادة الطائرة والطائرات الكبيرة بالذات. أفادت الجرائد أن زكريا كان يريد تعلم القيادة فقط دون تعلم كيفية الإقلاع والهبوط، وعند قراءة هذا الخبر أصابني الذهول، هذا أكبر دليل ضده، لست أدري إذا كانت هذه المعلومة صحيحة أو مبالغاً فيها، وفي الحقيقة طلب زكريا من المدرسة تعلم قيادة الطائرة لا غير، وفي أقرب وقت ممكن. وهذا يختلف عمّا تم نشره في الصحف وفقاً لشهادة كبير المدربين، فقد قال إنه كان عنيداً ومستفزاً وكثير التباهي، وكان متضايقاً باستمرار، وهذا هو سبب اكتشاف سره. كان المدرب يشك في أمره، لذا أخذ يفحص ملفه ويتمعن فيه بدقة، حتى اكتشف أن تأشيرة الدخول إلى أمريكة على وشك الانتهاء، فقام باستدعاء الشرطة وأخبرهم بذلك. لم يكن يتصور أن زكريا قد يكون إرهابياً. الأف ـ بي ـ أي أيضاً، لم تكن تتصور ذلك أبداً. بعد إيقافه تم التحقيق معه حتى أحداث 11 سبتمبر، لكن رجل المباحث لم يكتشف أي شيء ضده. في تلك المدة كان في مركز إيقاف فقط، ولم يوضع بعد في سجن خاص بالأمن القومي الذي تم وضعه فيه بعد يومين من أحداث 11 سبتمبر. طبعاً كان في مركز إيقاف بوسطون

استعداداً لترحيله، والغريب أنه في 10 سبتمبر جاءه أحد رجال المباحث وأخبره بحزم أمتعته استعداداً للسفر إلى فرنسة.

التهمة الوحيدة الموجهة له هي مخالفة شروط الإقامة؛ لأن تأشيرة دخوله إلى أمريكة انتهت. مع العلم أيضاً فإن قاضي التحقيق الذي أرسل إلى رجل الأمن القومي كان ليس مستعجلاً لمقابلته، عندما قرأت ذلك في الصحف اطمأن قلبي، وقلت لنفسي: هناك أمل أن ابني تم إيقافه عن طريق الخطأ، وأن القضية تم تضخيمها من طرف وسائل الإعلام.

لكن التحقيق اكتشف معلومات جديدة مخلة بالنظام، بالطبع زكريا كان يتعلم قيادة الطائرة في المدرسة نفسها التي درس فيها محمد عطا رئيس عصابة المنتحرين، والمعلومة الثانية مئات الآلاف من الدولارات تم تحويلها من بنك ألماني تمتلكه القاعدة. كان قلبي يتقطع أكثر كلما ثقلت الاتهامات الموجهة ضد زكريا.

طبعاً كل الدلائل تشير إلى أن زكريا ينتمي بالفعل إلى منظمة القاعدة، كان هذا بمثابة زلزال وقع فوق رأسي، وأصبحت مثل الضائعة: بل ضائعة بالفعل، والكل تخلى عني. كل ما كنت أومن به انهار فجأة.